منهـــج الاستـــدلال العقائـدي عند ابن القيم(رحمه الله)

م.د. معالـم سالـم يـونس
كلية التربية للبنات/قسم القرآن الكريم والتربية الإسلامية/ جامعة الموصل

الملخص

قدم لنا ابن القيم رحمه الله منهجا متميزاً في الاستدلال العقائدي ، توازنت فيه الأدلة النقلية والعقلية. وكانت الأدلة النقلية من الكتاب والسنة لها قصب السبق عنده ، إلا أنَه لم يهمل العقل الذي دعا النقل إلى أعماله والرجوع اليه، وكان استدلاله مبنيا على قواعد شرعية أساسية تتمحور حول ثبات الأدلة وعدم تعارضها وأوليتها، وتجلى ذلك في كتبه ومنهجه العقائدي فيها، مكرسا جهوده لخدمة عقيدة التوحيد التي آمن بها عقله وقلبه.

ABSTRACT

Ibn al-Qayyim gave us God's mercy in the approach distinct ideological reasoning, are balanced by the evidence for transport and mental. The evidence for transmission of the Quran and Sunnah have prized him, but he did not neglect the mind, which called for transport to his work and refer to him, was the reasoning is based on the rules of the legitimacy of basic centered on the stability of the evidence and do not conflict and Olecha, and reflected in his books and his approach dogmatic where, devoted his efforts to serve monotheism that safe out of his mind and his heart.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم واله واصحابه الطيبين الطاهرين.

اما بعـــد

يعد ابن القيم من العلماء الأفذاذ الذين قدموا من جهودهم المباركة في خدمة هذا الدين العظيم، ولاشك أنه من اغزر المصنفين وارتبهم، فقد تميز أسلوبه بالعلم والسلاسة والسعة في إدراك العلوم الشرعية والتمكن منها، يشهد بذلك تصانيفه العديدة والشهيرة التي ألفها لنا، ولقد كان لإثبات عقيدة التوحيد نصيب طيب في مؤلفاته كونه تلميذا نجيبا لابن تيمية، أردت في بحثي هذا إلقاء الضوء على منهجه في اثبات عقيدة التوحيد وكيفية استدلاله عليها من خلال الاطلاع على كتبه واستقراء طريقته في ذلك، واتخذت من التعريف بألفاظ العنوان والتعريف بابن القيم مطلبا أولا ثم بيان مصادر الاستدلال عنده مطلبا ثانيا، ثم المطلب الثالث في منهجيته في الاستدلال العقائدي، مستشهدتا بالأمثلة وناقلة لها من مضان كتبه ثم ختم البحث بخاتمة برز فيها اهم ما توصل اليه البحث ثم مصادر البحث التي اعتمدتها، ولا ادعي الاجادة ولكنه جهد المقل اردت به وجه الله تعالى عسى أن يتقبله منا خالصا لوجهه الكريم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المطلب الاول: التعريف بألفاظ العنوان لغةً واصطلاحا وبابن القيم

المطلب الثاني: مصادر الاستدلال العقائدي

المطلب الثالث: منهجية العمل بالأدلة عند ابن القيم

المطلب الأول
التعريف بألفاظ العنوان لغة واصطلاحا
وبابن القيم (رحمـه اللّه)

اولاً :تعريف المنهج

١-المنهـج لغـة

وردت لفظة (منهج): في المعاجم العربية فهي على وزن (مفعل) يقال: نهج ينهج منهجاً، فعل يفعل مفعلاً، والمنهج الطريق الواضح، ونهج الأمر، وأنهج وضح واستبان، ومنهج الطريق ومنهاجه، الطريق المستقيم الواضح : نهج الثواب وأنهج أي: بان فيه أثر البلى، وأنهجه البلى(١) ومنه قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (٢).

٢-المنهج اصطلاحاً

ومن المعنى اللغوي نعلم انه اصطلاحا يعني الطريقة التي يحاول الشخص اثبات ما يؤمن به ويعتقده، وغالبا يكون الأثبات لغيره إن كان عارفا موقنا ،وإن كان جاهلاً فهو طريق وصوله إلى الحقيقة (٣) ،وهو(فن التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار العديدة، أما من أجل الكشف عن الحقيقة، إذ نكون بها جاهلين؛ أو من أجل البرهنة عليها للآخرين حين نكون بها عارفين)[٤].

---

(١) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن، الحسين بن محمد بن الفضل الأصفهاني، دار القلم، دمشق– د.س، ج٢، ص٤٥٥، وغريب الحديث لأبي إسحاق الحربي (ت ٢٨٥) هـ الناشر جامعة أم القرى– مكة المكرمة، ط١ ١٤٠٥، ج٢، ص٥٠٢

(٢) سورة المائدة، الآية ٤٨.

(٣) ينظر: العين للخليل بن أحمد الفراهيدي ت ١٧٠ هـ دار ومكتبة الهلال ج٣،ص٣٩٢،والصحاح تاج اللغة وصحاح العربية لأبي نصر الفارابي ت ٣٩٢ هـ دار العلم للملايين ط٤ ،١٤٠٧هـ ،ج١،ص٣٤٦

(٤) مناهج البحث العلمي، عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٧٧، ط٣، ص٤.

ثانياً: تعريف الاستدلال

١-الاستدلال لغةً

مصدر للفعل استدل، وصيغة الاستفعال تأتي لأكثر من معنى أشهرها الطلب (١)، ومن ثَمَّ يكون معنى الاستدلال لغة: طلب الدليل، وأصل مادة «دل» تدور حول معنى الابانة؛ وهو كما يقول ابن فارس: «إبانة الشيء بأمارة تتعلمها» (٢)، ويطلق لفظ الدليل على ناصب الدليل وذاكره، وعلى كل ما فيه دلالة وإرشاد(٣)، وهذا المعنى الأخير هو الذي نقصده هنا.

٢-الاستدلال اصطلاحاً

(هو الذي يلزم من العلم به العلم بشيء اخر)(٤)، وللمتكلمين والأصوليين القدماء تعريفات متنوعة لمصطلح «الاستدلال»، مع انهم قد يقرنون استعماله بمصطلحات أخرى؛ كالنظر والفكر والاعتبار(٥)، وقد عرف بعضهم الاستدلال بأنه النظر في الدليل، وهناك من قال: إنه إقامة الدليل، واختار آخرون الجمع بين المعنيين معًا(٦).

ثالثاً: تعريف العقيدة

١-العقيدة لغةً

في الاشتقاق اللغوي على وزن فعيلة بمعنى مفعولة ؛ أي: معقودة، وقد ذكرت المعاجم اللغوية استعمالات ومعاني متعددة لمادة «عَقَدَ» التي اشتق منها مصطلح العقيدة، بعضها حسي، وبعضها معنوي، ويمكن إرجاعها إلى أصل كلي يدل على الشدة، والصلابة، والقوة، والثبات، والوثوق وهو نقيض الحلِّ،(٧)، ثم يتفرع عن هذا الأصل استعمالات متنوعة يوجد علاقة بينها وبين المعنى الاصطلاحي للعقيدة. ورودها بمعنى «العهد المؤكد»، المعنى حصن لبناء الإنسان

---

(١) المعجم الوسيط مجمع اللغة العربية ، ابراهيم مصطفى واخرون ،دار الدعوة، ج١، ص٢٩٤.

(٢) مقاييس اللغة لأحمد بن فارس القزويني ت٣٩٥هـ ، دار الفكر، ١٣٩٩هـ، ج٢، ص٢٥٩.

(٣) تاج العروس من جواهر القاموس ،لمرتضى الزبيدي ، ت ١٢٠٥هـ، د.ت، دار الهداية، ج٢٨، ص٥٠١.

(٤) التعريفات لعلي بن محمد الشريفي الجرجاني، دار الكتب العلمية، ط١، سنة (١٤٠٣هـ-١٩٨٣)، ص١٠٤.

(٥) ينظر: معالم اصول الدين لفخر الدين الرازي ت ٦٠٦هـ، دار الكتاب العربي – لبنان ، ج١، ص٢٣١ والبحر المحيط في أصول الفقه أبو عبدالله بدر الدين الزركشي، ت٧٩٤هـ، دار الكتبي ، ط١ ، ١٤١٤هـ، ج١، ص٥٤.

(٦) ينظر التقرير التحبير بن امير حاج ابن الموقت الحنفي ، ت٨٧٩هـ،دار الكتب العلمية ، ١٤٠٢هـ، ط٢، ج٣، ص٣١٢.

(٧) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، ابو العباس للفيومي ت ٧٧٠هـ ، المكتبة العلمية – بيروت، ج٢، ص٤٢١.

يشده بقوة، حتى لا يكون عرضة للانهيار أو السقوط، ويقال أيضًا: عقد السائل أو العسل عقدًا؛ أي: غلظ وجمد، وعقد الحبل يعقده إذا شده(١)

تطلق العقيدة على الامر الذي يعتقده الانسان ، ويعقد عليه قلبه وضميره بحيث يصير عنده حكما لا يقبل الشك .

٢-العقيدة اصطلاحاً

والعقيدة لا بد أن تكون قوية ثابتة، وغير قابلة للشك أو التذبذب، واعتقدت كذا عقدت عليه القلب والضمير حتى قيل العقيدة ما يدين به الانسان (٢)، فالعقيدة اذن هي التصديق القلبي الجازم بكل الحقائق الواردة في القرآن أو السُّنَّة الصحيحة، والمتعلقة بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقضاء والقدر.

فمناهج الاستدلال العقائدي هي الطريقة العامة، أو مجموعة الأسس والقواعد الكلية التي بيَنها وتبنَاها العلماء في البحث العلمي إما في مجال إثبات المسائل العقائدية وتقريرها، أو في مجال الدفاع عنها أمام شبهات الخصوم ومطاعنهم.

رابعاً :التعريف بابن قيم الجوزية (٦٩١ -٧٥١هـ، ١٢٩٢- ١٣٥٠م)

اسمه ، مولده، وفاته ،شيوخه ، مؤلفاته

محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد، من أعلام القرن الثامن الهجري. ولد في دمشق سنة احدى وتسعين وستمائة سمع من القاضي سليمان بن حمزة وعيسى المطعم وتتلمذ على يد ابن تيمية وتأثر به ونشر علمه ،(٣)، توفي سنة إحدى وخمسين وسبعمائة(٤). ومن أبرز كتب ابن ابن قيّم الجوزية في مجال السياسة كتابه الشهير الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، كما أن له العديد من المؤلفات الأخرى في الشريعة والتفسير والفقه نذكر منها: أعلام الموقّعين؛ زاد المعاد؛ مدارج السالكين؛ الوابل الصيّب من الكلم الطيّب؛ التبيان في أقسام القرآن ،شفاء العليل وكما أن له

(١) مقاييس اللغة لأحمد بن فارس القزويني ، ج٤، ص٨٦.

(٢) المصباح المنير، للفيومي، ج٢، ص٤٢١.

(٣) الرد الوافر لابن ناصر الدين شمس الدين القيسي ،ت ٨٤٢هـ ، المكتب الاسلامي- بيروت، ط١، ١٢٩٢هـ، ص٦٨.

(٤) ينظر: ديوان الاسلام لشمس الدين الغزي ،ت ١١٦٧هـ، دار الكتب العلمية -بيروت لبنان، ط١، ١٤١١هـ، ج٤، ص٥١.

عدداً عدد كبيراً منها مطبوعَ(١) وواسع الانتشار منها في الموسوعة الشاملة خمسة وثلاثون كتاباً.

المطلب الثاني

مصادر الاستدلال العقائدي

مما لاشك فيه أن مدار أمر الدين متوقف على الوحي بشطريه الكتاب والسنة وهما مصدر العقيدة الاسلامية وكذلك الشريعة، إلا أن أحكام الشريعة قد تطرأ عليها متغيرات متعلقة بالزمان والمكان سمح الشارع الحكيم لأولي الالباب والتقى بان يستنبطون احكامها بعد إتقان العلوم اللازمة لذلك ، إلا أن العقيدة ثابتة لا يمكن لأصولها أن تتبدل أو تتغير فالله تعالى واحد أحد ، والرسول صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين ، والجنة حق والنار حق والحشر والمعاد والخلود كائن لا محالة ،وهكذا بقية السمعيات التي جاء بها الوحي لا تبديل ولا تغيير قال تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ (٢)، وقال ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾(٣)، لذا فإن أصل العقيدة يؤخذ من كتاب الله وسنة نبيه الكريم عليه الصلاة والسلام ، لكن الناس متفاوتون في أفهامهم ودرجة اتقانهم لاستعمال أدوات المعرفة والوصول إلى الفهم الصحيح للكتاب والسنة، فكان جيل الوحي والتنزيل الحارس الأمين الذي أوصل لنا قواعد الدين واحكامه الثابتة، بل وعلم الامة كيفية الوصول الى نتائج الاجتهاد في المستجدات المستحدثة من خلال قواعد ومقاصد الشريعة ،وكان تلاميذ أولئك الأفذاذ من تابعين على قدر المسؤولية العظيمة التي أنيطت بهم، فحرسوا الدين وبذلوا في سبيل ذلك الكثير من الجهد والتضحيات ، ولقد امتدحهم الله تعالى بقوله﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾(٤).

---

(١) الأعلام لخير الدين الزركلي الدمشقي، ت ١٢٩٦هـ، دار العلم للملايين ، ط١٥، (٢٠٠٢م)، ج٦، ص٥٦.

(٢) سورة النمل ، الآية ٦.

(٣) سورة النجم ، الآية ٣-٤.

(٤) سورة التوبة ، الآية ١٠٠.

ان مصادر التشريع الأساسية هي الكتاب والسنة وما نقله الصحابة والتابعون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أجمع عليه أهل الحل والعقد من أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فهو الاجماع(١)، بل واستقراء كل ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم وأصحابه مما لا اجتهاد فيه في المسائل العقائدية والتثبت من اخبارها ، وهي بمجملها الأدلة التي اصطلح عليها فيما بعد الأدلة النقلية .

واضاف بعضهم الفطرة السليمة التي تدل على الله تعالى ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٢)، فقد عدّها بعضهم من وسائل الاستدلال العقائدي على وجود الخالق وتوحيده.

فهل كان هناك نوع اخر من الأدلة التي استدل بها المسلمون في عهودهم الأولى غير ادلة النقل؟.

والنصوص تخبرنا بأن القرآن الكريم كان يستثير الانسان للتفكر من أجل الوصول إلى الخالق وتوحيده كما في قوله تعالى ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾(٣)، بل لقد عد العلماء أكثر من ثمانين آية من هذا النوع في القرآن الكريم. والوقائع تخبرنا عن مسائل سئل عنها الصحابة وأجابوا بأدلة عقلية، فقد وردَ عن ابي بكر رضي الله عنه ان قال في تقرير مخالفة الله للحوادث (العجز عن درك الادراك ادراك)وقد شرحها الاسفراييني بقوله(اذا صح عندك ان الصانع لا يمكن معرفته بالتصوير والتركيب والقياس على الخلق صح عندك انه خلاف المخلوقات) (٤)، وفي مرة اخرى اجاب الصحابة عن مسالة

---

(١) ينظر:المحصول في أصول الفقه فخرالدين محمد بن عمر الرازي، ط١، دار الكتب العلمية– بيروت، ١٤٠٨هـ، ج٢، ص٣.

(٢) سورة الروم ، الآية ٣٠.

(٣) سورة ال عمران ، الآية ١٩٠–١٩١.

(٤)التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين ، أبو المظفر طاهر بن محمد الأسفراييني، (المتوفى: ٤٧١هـ) تحقيق كمال يوسف الحوت، عالم الكتب– لبنان، ط١، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م، ص١٦٠.

عقائدية اخرى حيث(سئل ابن عمر عن جماعة يزنون ويسرقون ويقتلون النفس التي حرم الله قتلها ويقولون كان ذلك في علم الله فغضب ابن عمر وقال كان ذلك في علمه ولم يكن علمه يحملهم على المعاصي)(١).

وهذا الاجتهاد العقلي هو ما اصطلح عليه فيما بعد عند العلماء بالرَّأْيِ الْمَحْمُودِ (أَنْ يَكُونَ بَعْدَ طَلَبِ عِلْمِ الْوَاقِعَةِ مِنْ الْقُرْآنِ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْهَا فِي الْقُرْآنِ فَفِي السُّنَّةِ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْهَا فِي السُّنَّةِ فَبِمَا قَضَى بِهِ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ أَوْ اثْنَانِ مِنْهُمْ أَوْ وَاحِدٌ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْهُ فَبِمَا قَالَهُ وَاحِدٌ مِنْ الصَّحَابَةِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ –، فَإِنْ لَمْ يَجِدْهُ اجْتَهَدَ رَأْيَهُ وَنَظَرَ إلَى أَقْرَبِ ذَلِكَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَأَقْضِيَةِ أَصْحَابِهِ؛ فَهَذَا هُوَ الرَّأْيُ الَّذِي سَوَّغَهُ الصَّحَابَةُ وَاسْتَعْمَلُوهُ، وَأَقَرَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَيْهِ) (٢)، فكيف يفسر قول ابي بكر رضي الله عنه: (أَيُّ سَمَاءٍ تُظِلُّنِي؟ وَأَيُّ أَرْضٍ تُقِلُّنِي إنْ قُلْت فِي كِتَابِ اللَّهِ بِرَأْيِي)، وَكَيْفَ يُجَمِعُ هَذَا الاثر الَّذِي تَقَدَّمَ مع الحديث الشريف «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ» (٣)،. والجواب عن ذلك أن الرأي رأيان كما يقول ابن القيم رحمه الله:

أَحَدُهُمَا: رَأْيٌ مُجَرَّدٌ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ، بَلْ هُوَ خَرْصٌ وَتَخْمِينٌ، فَهَذَا الَّذِي أَعَاذَ اللَّهُ الصِّدِّيقَ وَالصَّحَابَةَ مِنْهُ.

وَالثَّانِي: رَأْيٌ مُسْتَنِدٌ إلَى اسْتِدْلَالٍ وَاسْتِنْبَاطٍ مِنْ النَّصِّ وَحْدَهُ أَوْ مِنْ نَصٍّ آخَرَ مَعَهُ، فهذا لا بأس به(٤).

ولقد تطورت الأدلة العقلية فيما بعد بدخول علم المنطق إليها وأصبح القياس العقلي انواعاً عدة، فالعلم إما تصور أو تصديق، والتصور ينال بالحد، والتصديق ينال بالحجة وهي إما قياس أو استقراء أو تمثيل(٥).

---

(١) مفتاح السعادة لطاش كبري زادة (ت٩٦٨هـ)، دار الكتب العلمية ،، القاهرة ، ط سنة ١٩٦٨م ، وتاريخ المذاهب الاسلامية محمد أبو زهرة ، دار الفكر العربي، ص١٠٠.

(٢) أعلام الموقعين عن رب العالمين شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت، ط ١، ١٤١١هـ – ١٩٩١م، ج١، ص٦٧.

(٣) سنن الترمذي محمد بن عيسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، ط٢، ١٩٧٥، ج٥، ص١٩٩.(حديث حسن)

(٤) ينظر: أعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية، ج١، ص٦٥.

(٥) ينظر: معيار العلم في فن المنطق، لأبي حامد الغزالي، ت٥٠٥هـ، دار المعارف– مصر، ١٩٦١هـ، ص٦٨.

فماذا كان منهج ابن القيم رحمه الله في المسائل العقائدية. ومن خلال استقرائنا نجد أن منهجه العقائدي متوافق مع شيخه ابن تيمية رحمه الله في تقسيم التوحيد إلى:

١-توحيد الألوهية.

٢-توحيد الربوبية.

٣- توحيد الأسماء والصفات(١).

وفي مسألة النبوة اتفق المسلمون على عصمة الأنبياء عليهم السلام (٢)،وصفاتهم وان خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم وإثبات معجزاتهم وان دينهم واحد، وإنْ اختلفت الشريعة ،فإن الشريعة الإسلامية ناسخة لما قبلها من الشرائع التي هي هدى وحق في أزمانها (٣)،وأمور المعاد أيضا مما اتفقت عليه الأمة(٤).

يقول ابن القيم رحمه الله: (والَّذِي يَجِبُ عَلَى الْعَبْدِ اعْتِقَادُهُ وَيَلْزَمُهُ فِي ظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ اعْتِمَادُهُ مَا دَلَّ عَلَيْهِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى وَسُنَّةُ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَإِجْمَاعُ الصَّدْرِ الْأَوَّلِ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ وَأَئِمَّتِهِمُ الَّذِينَ هُمْ أَعْلَامُ الدِّينِ وَقُدْوَةُ مَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَذَلِكَ أَنْ يَعْتَقِدَ الْعَبْدُ وَيُقِرَّ وَيَعْتَرِفَ بِقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ أَنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ أَحَدٌ، فَرْدٌ صَمَدٌ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، لَا إِلَهَ سِوَاهُ وَلَا مَعْبُودَ إِلَّا إِيَّاهُ، وَلَا شَرِيكَ لَهُ وَلَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا وَزِيرَ لَهُ وَلَا ظَهِيرَ لَهُ وَلَا سَمِيَّ لَهُ وَلَا صَاحِبَةَ لَهُ وَلَا وَلَدَ لَهُ قَدِيمٌ أَبَدِيٌّ (أَزَلِيٌّ) أَوَّلٌ مِنْ غَيْرِ بِدَايَةٍ، وَآخِرٌ مِنْ غَيْرِ نِهَايَةٍ،)(٥) مبينا اصول التوحيد والمغايرة للخالق عن خلقه ثم يقول (مَوْصُوفٌ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ مِنَ الْحَيَاةِ وَالْقُدْرَةِ وَالْعِلْمِ وَالْإِرَادَةِ وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْبَقَاءِ وَالْبَهَاءِ وَالْجَمَالِ وَالْعَظَمَةِ وَالْجَلَالِ وَالْمَنِّ وَالْإِفْضَالِ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ وَلَا يُشْبِهُهُ شَيْءٌ وَلَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ شَيْءٌ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ وَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ، مُنَزَّهٌ

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم، ج١، ص٤٨.

(٢) مدارج السالكين لابن القيم، ج١، ص٣٠٨.

(٣) ينظر: أعلام الموقعين لابن القيم، ج٢، ص١٩٢.

(٤) ينظر: توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم، أحمد بن إبراهيم بن حمد بن محمد بن حمد بن عبدالله بن عيسى (المتوفى: ١٣٢٧هـ)، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي – بيروت ، ط٣، ١٤٠٦، ج١، ص٨٧.

(٥) اجتماع الجيوش الإسلامية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ) مطابع الفرزدق التجارية – الرياض، ط١، ١٤٠٨هـ / ١م، ج٢، ص١٧٦.

عَنْ كُلِّ نَقْصٍ وَآفَةٍ وَمُقَدَّسٌ عَنْ كُلِّ عَيْبٍ وَعَاهَةٍ، الْخَالِقُ الرَّازِقُ الْمُحْيِي الْمُمِيتُ الْبَاعِثُ الْوَارِثُ الْأَوَّلُ الْآخَرُ الظَّاهِرُ الْبَاطِنُ الطَّالِبُ الْغَالِبُ الْمُثِيبُ الْمُعَاقِبُ الْغَفُورُ الشَّكُورُ) (١) موكدا صفاته واسمائه التي اثبتها الله تعالى لنفسه ثم يقول (قَدَّرَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَضَاهُ وَأَبْرَمَهُ وَأَمْضَاهُ، مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ وَنَفْعٍ وَضُرٍّ وَطَاعَةٍ وَعِصْيَانٍ، وَعَمْدٍ وَنِسْيَانٍ، وَعَطَاءٍ وَحِرْمَانٍ، لَا يَجْرِي فِي مُلْكِهِ مَالَا يُرِيدُ، عَدْلٌ فِي أَقْضِيَتِهِ غَيْرُ ظَالِمٍ لِبَرِّيَّتِهِ. لَا رَادَّ لِأَمْرِهِ وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ رَبُّ الْعَالَمِينَ. إِلَهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخَرِينَ مَالِكُ يَوْمِ الدِّينِ)، (٢) مبينا للقدرة والقضاء والقدر الالهي. قال تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(٣) ، ويقول(نَصِفُهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ الْعَظِيمِ وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الْكَرِيمِ لَا نُجَاوِزُ ذَلِكَ وَلَا نَزِيدُ بَلْ نَقِفُ عِنْدَهُ وَنَنْتَهِي إِلَيْهِ وَلَا نَدْخُلُ فِيهِ بِرَأْيٍ وَلَا قِيَاسٍ، لِبُعْدِهِ عَنِ الْأَشْكَالِ وَالْأَجْنَاسِ، ﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾(٤) وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ مُسْتَوٍ عَلَى عَرْشِهِ وَفَوْقَ جَمِيعِ خَلْقِهِ كَمَا أَخْبَرَ فِي كِتَابِهِ وَعَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ مِنْ غَيْرِ تَشْبِيهٍ وَلَا تَعْطِيلٍ، وَلَا تَحْرِيفٍ وَلَا تَأْوِيلٍ، وَكَذَلِكَ كُلُّ مَا جَاءَ مِنَ الصِّفَاتِ نُمِرُّهُ كَمَا جَاءَ مِنْ غَيْرِ مَزِيدٍ عَلَيْهِ، وَنَقْتَدِي فِي ذَلِكَ بِعُلَمَاءِ السَّلَفِ الصَّالِحِ رِضْوَانُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، وَنَسْكُتُ عَمَّا سَكَتُوا عَنْهُ وَنَتَأَوَّلُ مَا تَأَوَّلُوا وَهُمُ الْقُدْوَةُ فِي هَذَا الْبَابِ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾(٥) ، وَنُؤْمِنُ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ وَحُلْوِهِ وَمُرِّهِ أَنَّهُ أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لَا مُعَقِّبَ لِمَا حَكَمَ وَلَا نَاقِضَ لِمَا أَبْرَمَ، وَأَنَّ أَعْمَالَ الْعِبَادِ حَسَنَهَا وَسَيِّئَهَا خَلْقُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَمَقْدِرَةٌ مِنْهُ عَلَيْهِمْ لَا خَالِقَ لَهَا سِوَاهُ وَلَا مُقَدِّرَ لَهَا إِلَّا إِيَّاهُ: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾(٦) ، ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾(٧) فَإِنَّهُ عَدْلٌ

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية، ابن القيم الجوزية، ج٢، ص١٧٦.
(٢) المصدر نفسه
(٣) سورة الشورى، الآية ١١.
(٤) سورة يوسف، الآية ٣٨.
(٥) سورة الزمر، الآية ١٨.
(٦) سورة النجم، الآية ٣١.
(٧) سورة الأنبياء، الآية ٢٣.

عَدْلٌ فِي ذَلِكَ غَيْرُ جَائِرٍ لَا يَظْلِمَهُمْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (وَكَذَلِكَ الْأَرْزَاقُ وَالْآجَالُ مُقَدَّرَةٌ لَا تَزِيدُ وَلَا تَنْقُصُ) (١)، ومن ذلك ايضاً قوله تعالى :﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾(٢)، فقد تضمن الأقسام ثبوت الجزاء ومستحق الجزاء وذلك يتضمن إثبات الرسالة والقرآن والمعاد وهو سبحانه يقسم على هذه الأمور الثلاثة ويقررها أبلغ التقرير لحاجة النفوس إلى معرفتهما والإيمان بها وأمر رسوله أن يقسم عليها كما قال تعالى ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾(٣)، وقال تعالى:﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾(٤)، وقال تعالى ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾(٥)، فهذه ثلاثة مواضع لا رابع لها يأمر يأمر نبيه أن

فمصـادر الاستدلال عنده هي:

اولاً: الأساسية وهي: الأدلة النقلية الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والأجماع .

ثانياً: الثانوية وهي: أدلة الفطرة والأدلة العقل.

---

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية ،ابن قيم الجوزية ، ج٢، ص١٧٦.

(٢) سورة القيامة، الآية ٢.

(٣) سورة يونس، الآية ٥٣.

(٤) سورة سبأ، الآية ٣.

(٥) سورة التغابن، الآية ٧.

المطلب الثالث
منهجية العمل بالأدلة عند ابن القيم

إن السياق الذي يعمل به في الاستدلال بهذه الأدلة هذا ما سنتطرق إليه في الصفحات القليلة القادمة.

اولاً :من ناحية الترتيب والأولوية

ثانياً: من ناحية التوافق والانسجام بين هذه الأدلة (لا تعارض بينها)

ثالثاً: شموليتها لكل مسائل الاعتقاد

رابعاً: ردودها على المخالفين

خامساً: وضوحها للمخاطبين

سادساً: رد المتشابه الى المحكم والايمان بهما جميعا

سابعاً: الاستدلال العقلي وحجيته

ثامناً: نداء الفطرة الصحيحة

اولاً: من ناحية الترتيب والأولية

الأساس الاول للاستدلال العقائدي عند ابن القيم هو بالكتاب الكريم، وذلك و اضح في كل كتبه ومنها خاصة كتابه مدارج السالكين وأعلام الموقعين ، حيث يستدل بسورة الفاتحة متعمقا بمعانيها مبرهنا أنواع التوحيد ومؤكدا على صفات الكمال الألهي(١) ، فإن اعلى الأدلة عنده وأقواها هو القران الكريم ثم يوضح معاني النصوص بالقرآن نفسه مستشهداً بالآيات الكريمات تباعا، بعد ذلك يلجا إلى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وما رواه عنه الصحابة(٢)، ولايوجد استشهاد عنده يخلو من التوضيح والبيان بل الاسترسال في بيان الأركان والأقسام والأجزاء التي يتمحور حولها الموضوع الذي يبرهنه وبأسلوب جذاب وغاية في الدقة والذكاء، أنَ الترابط في

(١) ينظر: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، دار الكتاب العربي – بيروت، ط٣، ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦م ، ج١، ص٣١.

(٢) ينظر: نفسه ج١، ص٣٥.

المعنى بين الآيات التي يستشهد بها يدل على سعة الحافظة والالمام والبراعة في الاستدلال القراني ، الذي هو أساس منهجه في الاستدلال العقائدي .يقول ابن القيم في ذلك : (وَلَمْ يَزُلْ أَئِمَّةُ الْإِسْلَامِ عَلَى تَقْدِيمِ الْكِتَابِ عَلَى السُّنَّةِ، وَالسُّنَّةِ عَلَى الْإِجْمَاعِ وَجَعْلِ الْإِجْمَاعِ فِي الْمَرْتَبَةِ الثَّالِثَةِ، قَالَ الشَّافِعِيُّ: الْحُجَّةُ كِتَابُ اللَّهِ وَسُنَّةُ رَسُولِهِ وَاتِّفَاقُ الْأَئِمَّةُ. وَقَالَ: وَالْعِلْمُ طَبَقَاتٌ، الْأُولَى: الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ الثَّابِتَةُ، ثُمَّ الْإِجْمَاعُ فِيمَا لَيْسَ فِيهِ كِتَابٌ وَلَا سُنَّةٌ، الثَّالِثَةُ: أَنْ يَقُولَ الصَّحَابِيُّ: فَلَا يُعْلَمُ لَهُ مُخَالِفٌ مِنْ الصَّحَابَةِ، الرَّابِعَةُ: اخْتِلَافُ الصَّحَابَةِ، وَالْخَامِسَةُ: الْقِيَاسُ؛ فَقَدَّمَ النَّظَرَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَلَى الْإِجْمَاعِ، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ إنَّمَا يُصَارُ إلَى الْإِجْمَاعِ فِيمَا لَمْ يُعْلَمْ فِيهِ كِتَابًا وَلَا سُنَّةً، وَهَذَا هُوَ الْحَقُّ)(١).اذن فالقرآن أول وأقوى مراتب الاستدلال عنده ثم يصار عند الى السنة ثم الى الاجماع والقياس اخرا.

ثانياً: التوافق والانسجام بين هذه الأدلة

فلا تعارض بين القران في عرضه لحقائق وثوابت العقيدة الإسلامية ولا تعارض بين الكتاب والسنة فكلاهما وحي الهي يقول بن القيم وَالسُّنَّةُ مَعَ الْقُرْآنِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ؛ أَحَدُهَا: أَنْ تَكُونَ مُوَافِقَةً لَهُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ؛ فَيَكُونُ تَوَارُدُ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ عَلَى الْحُكْمِ الْوَاحِدِ مِنْ بَابِ تَوَارُدِ الأدلة وَتَظَافُرِهَا. الثَّانِي: أَنْ تَكُونَ بَيَانًا لِمَا أُرِيدَ بِالْقُرْآنِ وَتَفْسِيرًا لَهُ. الثَّالِثُ: أَنْ تَكُونَ مُوجِبَةً لِحُكْمٍ سَكَتَ الْقُرْآنُ عَنْ إيجَابِهِ أَوْ مُحَرِّمَةً لِمَا سَكَتَ عَنْ تَحْرِيمِهِ، وَلَا تَخْرُجُ عَنْ هَذِهِ الْأَقْسَامِ، فَلَا تُعَارِضُ الْقُرْآنَ بِوَجْهٍ مَا، فَمَا كَانَ مِنْهَا زَائِدًا عَلَى الْقُرْآنِ فَهُوَ تَشْرِيعٌ مُبْتَدَأٌ مِنْ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: تَجِبُ طَاعَتُهُ فِيهِ، وَلَا تَحِلُّ مَعْصِيَتُهُ، وَلَيْسَ هَذَا تَقْدِيمًا لَهَا عَلَى كِتَابِ اللَّهِ، بَلْ امْتِثَالٌ لِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مِنْ طَاعَةِ رَسُولِهِ، وَلَوْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لَا يُطَاعُ فِي هَذَا الْقِسْمِ لَمْ يَكُنْ لِطَاعَتِهِ مَعْنًى، وَسَقَطَتْ طَاعَتُهُ الْمُخْتَصَّةُ بِهِ، وَإِنَّهُ إذَا لَمْ تَجِبْ طَاعَتُهُ إلَّا فِيمَا وَافَقَ الْقُرْآنَ لَا فِيمَا زَادَ عَلَيْهِ لَمْ يَكُنْ لَهُ طَاعَةٌ خَاصَّةٌ تَخْتَصُّ بِهِ،(٢) وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾(٣).

---

(١) أعلام الموقعين، ابن قيم الجوزية، ج٢، ص١٧٥.

(٢) ينظر: أعلام الموقعين عن رب العالمين ابن قيم الجوزية ، ج٢، ص٢٢٠.

(٣) سورة النساء، الآية ٨٠.

وينتقد ابن القيم من افترض تعارض العقل مع النقل وقدم العقل في استدلالاته على النقل فيقول(إن هذا التقسيم باطل من أصله والتقسيم الصحيح أن يقال إذا تعارض دليلان سمعيان أو عقليان أو سمعي وعقلي فإما أن يكونا قطعيين وإما أن يكونا ظنيين وإما أن يكون أحدهما قطعيا والآخر ظنيا .فأما القطعيان فلا يمكن تعارضهما في الأقسام الثلاثة لأن الدليل القطعي هو الذي يستلزم مدلوله قطعا فلو تعارضا لزم الجمع بين النقيضين وهذا لا يشك فيه أحد من العقلاء. وإن كان أحدهما قطعيا والآخر ظنيا تعين تقديم القطعي سواء كان جميعا ظنين صرنا إلى الترجيح ووجب تقديم الراجح منهما سمعيا كان أو عقليا. فهذا تقسيم واضح متفق على مضمونه بين العقلاء. فأما إثبات التعارض بين الدليل العقلي والسمعي والجزم بتقديم العقلي مطلقا فخطأ واضح معلوم الفساد عند العقلاء. اما قولهم إذا تعارض العقل والنقل فإما أن يريد به القطعيين فلا نسلم إمكان التعارض وإما أن يريد به الظنيين فالتقديم للراجح مطلقا وإما أن يريد ما يكون أحدهما قطعيا والآخر ظنيا فالقطعي هو المقدم مطلقا فإذا قدر أن العقلي هو القطعي كان تقديمه لأنه قطعي لا لأنه عقلي فعلم أن تقديم العقلي مطلقا خطأ وأن جعل جهة الترجيح كونه عقليا خطأ وأن جعل سبب التأخير والاطراح كونه نقليا خطأ. ثم إنا لا نسلم انحصار القسمة فيما ذكره من الأقسام الأربعة إذ من الممكن أن يقال تقدم العقلي تارة والسمعي تارة فأيهما كان قطعيا قدم فدعواهم أنه لا بد من تقديم العقل مطلقا أو السمع مطلقا أو اعتبار الدليلين معا أو إلغائهما معا دعوى كاذبة بل ههنا قسم غير هذه الأقسام) [(١)].

ثالثاً: شمولية الأدلة النقلية والعقلية لكل مسائل الاعتقاد

ومعنى ذلك بان مسائل الاعتقاد لم يتركها الله تعالى لاجتهادات الناس وتخيلاتهم بل بينها في الكتاب والسنة على اكمل وجه على قدر استيعاب العقل الانساني لهذه الحقائق الغيبيات وانه تعالى بينها بالأدلة الوافية كقوله تعالى :﴿ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾(٢)،يقول ابن القيم (الْعِلْمُ بِهِ سُبْحَانَهُ، فَخَمْسُ مَرَاتِبَ: الْعِلْمُ بِذَاتِهِ، وَصِفَاتِهِ، وَأَفْعَالِهِ،

(١) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة ، ابن قيم الجوزية ، ج٣، ص٧٩٨.
(٢) سورة ق، الاية٣٧ .

وَأَسْمَائِهِ، وَتَنْزِيهِهِ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ. وَالْعِلْمُ بِدِينِهِ مَرْتَبَتَانِ، إِحْدَاهُمَا: دِينُهُ الْأَمْرِيُّ الشَّرْعِيُّ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ الْمُوصِلُ إِلَيْهِ. وَالثَّانِيَةُ: دِينُهُ الْجَزَائِيُّ، الْمُتَضَمِّنُ ثَوَابَهُ وَعِقَابَهُ، وَقَدْ دَخَلَ فِي هَذَا الْعِلْمِ الْعِلْمُ بِمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ.) (١)، مبينا شمولية الأدلة التي يعتمدها على كل مسائل الاعتقاد ويبرهن ابن القيم توحيد الربوبية والالوهية من خلال القران الكريم فيقول(وأقسم سبحانه بذلك على توحيد ربوبيته وإلهيته وقرر توحيد ربوبيته فقال ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾(٢)، من أعظم الأدلة على أنه إله واحد ولو كان معه إله آخر لكان الإله مشاركاً له في ربوبيته كما شاركه في إلهيته تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً وهذه قاعدة القرآن يقرر توحيد الإلهية بتوحيد الربوبية فيقرر كونه معبوداً وحده بكونه خالقاً رازقاً وحده (٣). ويثبت ابن القيم الاسماء والصفات لله تعالى شأنه في ذلك شأن أهل السنة والجماعة فيقول(فهذا توحيد الرسل وعدلهم: إثبات حقائق الأسماء والصفات على ما يليق بالرب سبحانه) (٤) ويقول وَنَفْيُ مَعَانِي أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى مِنْ أَعْظَمِ الْإِلْحَادِ فِيهَا، قَالَ تَعَالَى ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾،(٥). بل ويثبت الكتب السابقة وبشاراتها بالرسول صلى الله عليه وسلم بأقوى الأدلة (أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ الْمُتَقَدِّمِينَ بَشَّرُوا بِنُبُوَّتِهِ، وَأَمَرُوا أُمَمَهُمْ بِالْإِيمَانِ بِهِ، كَمَا تَقَدَّمَ، وَمَنْ جَحَدَ نُبُوَّتَهُ فَقَدْ كَذَّبَ الْأَنْبِيَاءَ قَبْلَهُ فِيمَا أَخْبَرُوا بِهِ، وَخَالَفَهُمْ فِيمَا أَوْصَوْا بِهِ مِنَ الْإِيمَانِ بِهِ، فَالتَّصْدِيقُ بِهِ لَازِمٌ مِنْ لَوَازِمِ التَّصْدِيقِ بِهِمْ، وَإِذَا انْتَفَى اللَّازِمُ انْتَفَى مَلْزُومُهُ قَطْعًا، وَبَيَانُ الْمُلَازَمَةِ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْوُجُوهِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي تُفِيدُ بِمَجْمُوعِهَا الْقَطْعَ عَلَى أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ ذُكِرَ فِي الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ عَلَى أَلْسُنِ الْأَنْبِيَاءِ) (٦).ويحتج اروع احتجاج على المعاد بما جاء في القران الكريم

---

(١) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم، ج١، ص١٢٨.

(٢) سورة الصافات، الآية ٤-٥.

(٣) ينظر: التبيان في أقسام القرآن محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، الناشر: دار المعرفة، بيروت، لبنان، ج١، ص٤٢

(٤) اجتماع الجيوش الإسلامية ،ابن قيم الجوزية ، ج١، ص١٨٣.

(٥) سورة الاعراف، الآية ١٨٠.

(٦) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ) دار القلم- دار الشامية، جدة - السعودية، ط١، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، ج٢، ص٥٧٧.

فيقول(يحْتَج سُبْحَانَهُ بالمبدأ على الْمعَاد كثيرا قال تعالى ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ (١) وَقَالَ تعالى ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نعيده﴾ (٢) وَقَالَ تعالى ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾(٣)، فالدليل نقلي لكنه يبرهن بخطابه العقل لإمكان المعاد كما حصل الإيجاد في النشأة الاولى.

رابعاً: ردودها على المخالفين

وهو ان عقيدة الاسلام كما جاء بها الوحي وصدقه العقل جاءت بالأدلة الدامغة التي اذهلت المخالفين واعجزتهم عن الرد من ذلك قوله تَعَالَى فِي حَقِّ مُنْكِرِي النُّبُوَّةِ وَإِرْسَالِ الرُّسُلِ، وَإِنْزَالِ الْكُتُبِ ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾(٤) وَقَالَ تَعَالَى فِي حَقِّ مُنْكِرِي الْمَعَادِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾(٥)، وَقَالَ فِي حَقِّ مَنْ جَوَّزَ عَلَيْهِ التَّسْوِيَةَ بَيْنَ الْمُخْتَلِفَيْنِ، كَالْأَبْرَارِ وَالْفُجَّارِ، وَالْمُؤْمِنِينَ والكفار ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾(٦) ، فَأَخْبَرَ أَنَّ هَذَا حُكْمٌ سَيِّئٌ لَا يَلِيقُ بِهِ، تَأْبَاهُ أَسْمَاؤُهُ وَصِفَاتُهُ، وَقَالَ سُبْحَانَهُ ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾(٧)، عَنْ هَذَا الظَّنِّ وَالْحُسْبَانِ، الَّذِي تَأْبَاهُ أَسْمَاؤُهُ وَصِفَاتُهُ)(٨).

---

(١) سورة الاعراف، الاية٢٩ .
(٢) سورة الْأَنْبِيَاء، الاية١٠٤.
(٣) سورة يّس، ٧٨ –٧٩.
(٤) سورة الأنعام، الآية ٩١.
(٥) سورة الزمر، الآية ٦٧.
(٦) سورة الجاثية، الاية٢١.
(٧) سورة المؤمنون، الآية ١١٥.
(٨) مدارج السالكين لابن القيم، ج١، ص٤١٩.

ويعيب على الجهمية نفي الصفات فيقول (ومن تجهم منهم نفى حقائق الصفات وقال لم تقم به صفة ثبوتية فنفوا صفاته وردوها إلى السلوب والإضافات ونفوا أفعاله وردوها إلى المصنوعات المخلوقات وحقيقة هذا أن أسماءه تعالى ألفاظ فارغة عن المعاني لا حقائق لها وهذا من الإلحاد فيها وإنكار أن يكون حسنا وقد قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١).وقد دل القرآن والسنة على إثبات مصادر هذه الأسماء له سبحانه وصفا كقوله تعالى ﴿ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً ﴾ (٢)، وقوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ (٣)، وقوله: ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ ﴾ (٤)،وقوله صلى الله عليه وسلم: "لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه"(٥). وقول عائشة: "الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات" وقوله صلى الله عليه وسلم: "أعوذ برضاك من سخطك" (٦). وقوله: "أسألك الغيب وقدرتك على الخلق"(٧).وقوله: "أعوذ بعزتك أن تضلني" (٨).ولولا هذه المصادر لانتفت حقائق الأسماء والصفات والأفعال فإن أفعاله غير صفاته وأسماءه غير أفعاله وصفاته فإذا لم يقم به فعل ولا صفة فلا معنى للاسم المجرد وهو بمنزلة صوت لا يفيد شيئا وهذا غاية الإلحاد،(٩).ومنهجه واضح في براهينه النقلية وتسخيرها تسخيرا تاما من اجل اثبات عقيدة

---

(١) سورة الاعراف، الآية ١٨٠.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٦٥.

(٣) سورة الذاريات ،الآية ٥٨.

(٤) سورة هود، الآية ١٤.

(٥) المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ح١، ص١٦١.

(٦) المصدر نفسه، ج١، ص٣٥٢.

(٧) المجتبى من السنن = السنن الصغرى للنسائي أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ)مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب، ج٣، ص٥٤.

(٨) المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ،مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري ، ، صحيح مسلم ج ٤، ٢٠٨٦.

(٩) ينظر شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل لشمس الدين ابن قيم الجوزية ، دار المعرفة، بيروت، لبنان الطبعة: ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، ج١، ص ٢٧١.

التوحيد وخدمتها ومخاطبة العقل والوجدان بهذه الأدلة ومبرهنا شمولية الكتاب والسنة لكل العقائد التي يحتاجها الأنسان ليصل الى الايمان بالله تعالى وتوحيده وصفاته ومن ثم الوصول الى رضاه وجنته. كذلك مناقشته لأفكار الاخرين واعتقاداتهم دلت على سعة اطلاعه ومعرفته بهم وردوده كما في المثال السابق على الجهمية.

خامساً: وضوحها للمخاطبين

والمعنى ان القران الكريم على شدة بلاغته وفصاحته جاء على اوضح صورة وباللسان العربي المبين فكل مسائل الاعتقاد واضحة ومبينة قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١)، وقال ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (٢)، وقال ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ (٣)،﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ (٤)، فَالْحَقُّ هُوَ الْمَعْنَى الْمَعْنَى وَالْمَدْلُولُ الَّذِي تَضَمَّنَهُ الْكِتَابُ، وَالتَّفْسِيرُ الْأَحْسَنُ هُوَ الْأَلْفَاظُ الدَّالَّةُ عَلَى ذَلِكَ الْحَقِّ، فَهُوَ تَفْسِيرُهُ وَبَيَانُهُ، وَالتَّفْسِيرُ أَصْلُهُ مِنَ الْبَيَانِ وَالظُّهُورِ، وَيُلَاقِيهِ فِي الِاشْتِقَاقِ الْأَكْبَرِ الْإِسْفَارُ، وَمِنْهُ: أَسْفَرَ الْفَجْرُ إِذَا أَضَاءَ وَوَضَحَ، وَمِنْهُ السَّفَرُ لِبُرُوزِ الْمُسَافِرِ مِنَ الْبُيُوتِ، وَمِنْهُ السِّفْرُ الَّذِي يَتَضَمَّنُ إِظْهَارَ مَا فِيهَا مِنَ الْعِلْمِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ التَّفْسِيرُ مُطَابِقًا لِلْمُفَسَّرِ مُفَهِّمًا له. ولا تَجِدُ كَلَامًا أَحْسَنَ تَفْسِيرًا وَلَا أَتَمَّ بَيَانًا مِنْ كَلَامِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَلِهَذَا سَمَّاهُ اللَّهُ بَيَانًا، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ يَسَّرَهُ لِلذِّكْرِ وَيَسَّرَ أَلْفَاظَهُ لِلْحِفْظِ وَمَعَانِيهِ لِلْفَهْمِ، وَأَوَامِرَهُ وَنَوَاهِيَهِ لِلِامْتِثَالِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَوْ كَانَ بِالْأَلْفَاظِ لَا يَفْهَمُهَا الْمُخَاطَبُ لَمْ يَكُنْ مُيَسِّرًا لَهُ بَلْ كَانَ مُعَسِّرًا عَلَيْهِ، وَإِذَا أُرِيدَ مِنَ الْمُخَاطَبِ أَنْ يَفْهَمَ مِنْ أَلْفَاظِهِ مَا لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَعَانِي، أَوْ يَدُلُّ عَلَى خِلَافِهِ فَهَذَا مِنْ أَشَدِّ التَّعْسِيرِ،)(٥).يقول ابن القيم أيضا واصفا ومبينا ان

---

(١) سورة ابراهيم، الآية ٤.

(٢) سورة النحل، الآية٨٩.

(٣) سورة القمر، الاية١٧.

(٤) سورة الفرقان، الآية ٣٣.

(٥) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، اختصره: محمد بن محمد بن عبد الكريم بن رضوان البعلي شمس الدين، ابن الموصلي (المتوفى: ٧٧٤هـ): دار الحديث، القاهرة – مصرط١، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م، ج١، ص٥٧.

الشرائع اتت بما يفهمه جمهور المخاطبين من الناس اجمعين تدعو الى الشريعة الإلهية السمحة فيقول(أن الشرائع واردة بخطاب الجمهور بما يفهمون مقربا مالا يفهمون إلى أفهامهم بالتمثيل والتشبيه ولو كان غير ذلك لما أغنت الشرائع البتة) .(١)

سادساً: رد المتشابه الى المحكم والايمان بهما جميعا

كما هو معلوم ان آيات القران الكريم منها المحكم ومنها المتشابهة وقد ذكرها الله تعالى بقولهِ ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (٢) والمنهج الذي عليه علماء الامة المعتبرون هو الاخذ بالمحكم ورد المتشابه الى المحكم لمعرفة حكمة، وليعرفوا الحق الذي امتدحهم الله تعالى بالوصول اليه من خلال طاعته في الاخذ بما امرهم به من منهج مستقيم في الأيمان بهما جميعا، واستنباط الحق وعدم ضرب الكتاب بعضه ببعض، يقول ابن القيم :

(يَرُدُّونَ الْمُتَشَابِهَ إِلَى الْمُحْكَمِ، وَيَأْخُذُونَ مِنْ الْمُحْكَمِ مَا يُفَسِّرُ لَهُمْ الْمُتَشَابِهَ وَيُبَيِّنُهُ لَهُمْ، فَتَتَّفِقُ دَلَالَتَهُ مَعَ دَلَالَةِ الْمُحْكَمِ، وَتُوَافِقُ النُّصُوصُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَيُصَدِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَإِنَّهَا كُلَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَمَا كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَلَا اخْتِلَافَ فِيهِ وَلَا تَنَاقُضَ، وَإِنَّمَا الِاخْتِلَافُ وَالتَّنَاقُضُ فِيمَا كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِهِ.)(٣) والمعروف ان المذهبين في المحكم والمتشابه الاول انه لا يعلمه الا الله والوقف على لفظ الجلالة، فيكون والراسخون في العلم يقولون امنا به كل من عند ربنا على الاستئناف، والمذهب الثاني انه على العطف اي والراسخون بالعلم يعلمونه ولكل مذهب ادلته(٤)، فان للعلماء في متشابه الصفات مذهبين:

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لابن القيم ،ج ٣ ، ص١١٠٤.

(٢) سورة ال عمران، الآية ٧.

(٣) أعلام الموقعين لابن القيم ، ج٢، ص٢١٠.

(٤) للاستزادة عن هذا الموضوع ينظر: أحكام القرآن علي بن محمد بن علي، أبو الحسن الطبري، الملقب بعماد الدين، المعروف بالكيا الهراسي الشافعي (المتوفى: ٥٠٤هـ)،ج٢،ص٢٧٧،والاتقان في علوم القرآن عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)،الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ ،ج٣،ص٣ومابعدها، ومباحث في علوم القران لصبحي الصالح دار العلم للملايين: ط٢٤ ، ٢٠٠٠م، ج١، ص٢٨١.

الأول: مذهب السلف، وهو الإيمان بهذه المتشابهات وتفويض معرفتها إلى الله تعالى. سئل الإمام مالك عن الاستواء فقال: "الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة، وأظنك رجل سوء، أخرجوه عني"

والثاني: مذهب الخلف، وهو حمل اللفظ الذي يستحيل ظاهره على معنى يليق بذات الله. وينسب هذا المذهب إلى الاشاعرة والماتريدية بصورة عامة ومنهم إمام الحرمين الجويني(١)، والغزالي(٢)، وجماعة كبيرة من المتأخرين.

ولتوضيح المذهبين نذكر بعض الآيات القرآنية الواردة في متشابه الصفات. فمن ذلك ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (٣) ، و﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ (٤)، و﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ (٥) ، ﴿ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ (٦) ، ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾(٧) ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ (٨)،﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ (٩)، ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ (١٠). فالسلف ينزهون الله عن هذه الظواهر المستحيلة عليه، ويؤمنون بها بالغيب كما ذكرها الله، ويفوضون علم حقائقها إليه، أما الخلف فيحملون الاستواء على العلو المعنوي بالتدبير من غير معاناة . ومجيء

---

(١) إمام الحرمين هو عبد الملك بن أبي عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني الشافعي العراقي، أبو المعالي، كان شيخ الإمام الغزالي ومن أعلم أصحاب الشافعي. توفي سنة ٤٧٨هـ "انظر ترجمته في وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي (المتوفى: ٦٨١هـ)، دار صادر – بيروت، ج٣، ص١٦٧.

(٢) ولد أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن احمد الغزالي في قرية قريبة من مدينة طوس من اقليم خرسان عام ٤٥٠ هـ واليها نسب توفي الغزالي سنة ٥٠٥هـ ملأ الدنيا علماً وصار من المعدودين الافذاذ عن علماء الامة افحم الخصوم وناظر العلماء ،انظر ترجمته في وفيات الاعيان لابن خلكان،جـ٤، ص٢١٦.

(٣) سورة طه، الاية٥.

(٤) سورة الفجر، الآية ٢٢.

(٥) سورة الأنعام، الاية٦١.

(٦) سورة الزمر، الآية ٥٦.

(٧) سورة الرحمن، الآية ٢٧.

(٨) سورة طه، الآية ٣٩.

(٩) سورة الفتح، الآية ١٠.

(١٠) سورة ال عمران، الآية ٢٨.

الله على مجيء أمره، وفوقيته على العلو لا في جهة ، وجنبه على حقه ، ووجهه على ذاته ، وعينه على عنايته ، ويده على قدرته ، ونفسه على عقوبته .وهكذا يؤول الخلف –على هذا المنوال– جميع ما ورد من رضى الله وحبه وغضبه وسخطه وحيائه بحملها على أقرب مجاز، ويقولون: لا يراد من هذه الألفاظ إلا لازمها (١) ، والذي يعنينا هنا ان ابن القيم رحمه الله لا يعتبر الصفات مما هو متشابه فيقول (الصحابة لم يتنازعو في تأويل آيات الصفات وأخبارها في موضع واحد بل اتفقت كلمتهم وكلمة التابعين بعدهم على إقرارها وإمرارها مع فهم معانيها وإثبات حقائقها وهذا يدل على أنها أعظم النوعين بيانا وأن العناية ببيانها أهم لأنها من تمام تحقيق الشهادتين وإثباتها من لوازم التوحيد فبينها الله ورسوله بيانا شافيا لا يقع فيه لبس ولا إشكال يوقع الراسخين في العلم في منازعة ولا اشتباه ومن شرح الله لها صدره ونور لها قلبه يعلم أن دلالتها على معانيها أظهر من دلالة كثير من آيات الأحكام على معانيها ولهذا آيات الأحكام لا يكاد يفهم معانيها إلا الخاصة من الناس وأما آيات الأسماء والصفات فيشترك في فهمها الخاص والعام أعني فهم أصل المعنى لا فهم الكنه والكيفية) (٢).

سابعاً: الاستدلال العقلي وحجيته

أما القياس العقلي فأننا نجد ابن القيم من أشد القائلين به والمؤيدين له ولكن القياس الذي هو في اساسه مستنبط من القران الكريم والسنة المطهرة ،يعد حجة عنده بكل تأكيد، ومجال بحثنا الامور والمسائل العقائدية وسنأخذ مثالا من امثلة ابن القيم المبرهنة بالعقل مسالة عقائدية، لكن اصلها قراني فيقول تحت عنوان اشارات القران الى القياس العقلي (وَقَدْ أَرْشَدَ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ إِلَيْهِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ، فَقَاسَ النَّشْأَةَ الثَّانِيَةَ عَلَى النَّشْأَةِ الْأُولَى فِي الْإِمْكَانِ، وَجَعَلَ النَّشْأَةَ الْأُولَى أَصْلًا وَالثَّانِيَةَ فَرْعًا عَلَيْهَا؛ وَقَاسَ حَيَاةَ الْأَمْوَاتِ بَعْدَ الْمَوْتِ عَلَى حَيَاةِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا بِالنَّبَاتِ، وَقَاسَ الْخَلْقَ الْجَدِيدَ الَّذِي أَنْكَرَهُ أَعْدَاؤُهُ عَلَى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَجَعَلَهُ مِنْ قِيَاسِ الْأُولَى كَمَا جَعَلَ قِيَاسَ النَّشْأَةِ الثَّانِيَةِ عَلَى الْأُولَى مِنْ قِيَاسِ الْأُولَى؛ وَقَاسَ الْحَيَاةَ بَعْدَ الْمَوْتِ عَلَى الْيَقَظَةِ بَعْدَ النَّوْمِ، وَضَرَبَ الْأَمْثَالَ، وَصَرَّفَهَا فِي الْأَنْوَاعِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَكُلُّهَا أَقْيِسَةٌ عَقْلِيَّةٌ يُنَبِّهُ بِهَا عِبَادَهُ عَلَى أَنَّ حُكْمَ الشَّيْءِ حُكْمُ مِثْلِهِ، فَإِنَّ الْأَمْثَالَ كُلَّهَا قِيَاسَاتٌ يُعْلَمُ مِنْهَا حُكْمُ الْمُمَثَّلِ مِنْ الْمُمَثَّلِ

(١) ينظر مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح، ج١، ص٢٨٤–٢٨٥.

(٢) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة لابن القيم، ج١، ص٢١٣.

بِهِ،)(١) معتمداً قوله تعالى ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾(٢) بل انه يقول عن الامثال القرآنية (قد اشْتَمَلَ الْقُرْآنُ عَلَى بِضْعَةٍ وَأَرْبَعِينَ مَثَلًا تَتَضَمَّنُ تَشْبِيهَ الشَّيْءِ بِنَظِيرِهِ وَالتَّسْوِيَةَ بَيْنَهُمَا فِي الْحُكْمِ.) (٣) ،ويقول ابن القيم بان القياس العقلي هو من الفطر الانسانية التي فطر الله الناس عليها فيقول (وَقَالَ تَعَالَى:﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾(٤) يقول ابن القيم: (فَالْقِيَاسُ فِي ضَرْبِ الْأَمْثَالِ مِنْ خَاصَّةِ الْعَقْلِ، وَقَدْ رَكَّزَ اللَّهُ فِطَرَ النَّاسِ وَعُقُولَهُمْ عَلَى التَّسْوِيَةِ بَيْنَ الْمُتَمَاثِلَيْنِ وَإِنْكَارِ التَّفْرِيقِ بَيْنَهُمَا، وَالْفَرْقِ بَيْنَ الْمُخْتَلِفَيْنِ وَإِنْكَارِ الْجَمْعِ بَيْنَهُمَا وَمَدَارُ الِاسْتِدْلَالِ جَمِيعُهُ عَلَى التَّسْوِيَةِ بَيْنَ الْمُتَمَاثِلَيْنِ وَالْفَرْقِ بَيْنَ الْمُخْتَلِفَيْنِ؛ فَإِنَّهُ إمَّا اسْتِدْلَالٌ بِمُعَيَّنٍ عَلَى مُعَيَّنٍ أَوْ بِمُعَيَّنٍ عَلَى عَامٍّ، أَوْ بِعَامٍّ عَلَى مُعَيَّنٍ، أَوْ بِعَامٍّ عَلَى عَامٍّ؛ فَهَذِهِ الْأَرْبَعَةُ هِيَ مَجَامِعُ ضُرُوبِ الِاسْتِدْلَالِ)(٥) فيقول مثلا (تَأَمَّلْ قَوْلَهُ: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾(٦)، كَيْفَ تَجِدُ الْمَعْنَى أَنَّ حُكْمَكُمْ كَحُكْمِهِمْ، وَأَنَّا إذَا كُنَّا قَدْ أَهْلَكْنَاهُمْ بِمَعْصِيَةِ رُسُلِنَا وَلَمْ يَدْفَعْ عَنْهُمْ مَا مُكِّنُوا فِيهِ مِنْ أَسْبَابِ الْعَيْشِ فَأَنْتُمْ كَذَلِكَ تَسْوِيَةً بَيْنَ الْمُتَمَاثِلَيْنِ، وَأَنَّ هَذَا مَحْضُ عَدْلِ اللَّهِ بَيْنَ عِبَادِهِ)(٧)، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْله تَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾(٨) ، (فَأَخْبَرَ (فَأَخْبَرَ أَنَّ حُكْمَ الشَّيْءِ حُكْمُ مِثْلِهِ)(٩)، ويقول:(وَكَذَلِكَ كُلُّ مَوْضِعٍ أَمَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِيهِ بِالسَّيْرِ فِي فِي الْأَرْضِ، سَوَاءٌ كَانَ السَّيْرُ الْحِسِّيُّ عَلَى الْأَقْدَامِ وَالدَّوَابِّ أَوْ السَّيْرُ الْمَعْنَوِيُّ بِالتَّفَكُّرِ وَالِاعْتِبَارِ أَوْ كَانَ اللَّفْظُ يَعُمُّهُمَا وَهُوَ الصَّوَابُ، فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى الِاعْتِبَارِ وَالْحَذَرِ أَنْ يَحِلَّ بِالْمُخَاطَبِينَ مَا حَلَّ

(١) أعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم، ح١، ص١٠١.
(٢) سورة يس، الآية ٧٩.
(٣) أعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم، ح١، ص١٠١.
(٤) سورة العنكبوت، الآية ٤٣.
(٥) أعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم، ح١، ص١٠١.
(٦) سورة الاحقاف، الآية ٢٦.
(٧) أعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم، ح١، ص١٠٢.
(٨) سورة محمد، الآية ١٠.
(٩) أعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم، ح١، ص١٠٢.

بِأُولَئِكَ، وَلِهَذَا أَمَرَ سُبْحَانَهُ أُولِي الْأَبْصَارِ بِالِاعْتِبَارِ بِمَا حَلَّ بِالْمُكَذِّبِينَ، وَلَوْلَا أَنَّ حُكْمَ النَّظِيرِ حُكْمُ نَظِيرِهِ حَتَّى تَعْبُرَ الْعُقُولُ مِنْهُ إِلَيْهِ لَمَا حَصَلَ الِاعْتِبَارُ، وَقَدْ نَفَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَنْ حُكْمِهِ وَحِكْمَتُهُ التَّسْوِيَةُ بَيْنَ الْمُخْتَلِفَيْنِ فِي الْحُكْمِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾(١) ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾(٢) فَأَخْبَرَ أَنَّ هَذَا حُكْمٌ بَاطِلٌ فِي الْفِطَرِ وَالْعُقُولِ، لَا تَلِيقُ نِسْبَتُهُ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ، وَقَالَ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾(٣)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾(٤)، أَفَلَا تَرَاهُ كَيْفَ ذَكَّرَ الْعُقُولَ وَنَبَّهَ الْفِطَرَ بِمَا أَوْدَعَ فِيهَا مِنْ إِعْطَاءِ النَّظِيرِ حُكْمَ نَظِيرِهِ، وَعَدَمِ التَّسْوِيَةِ بَيْنَ الشَّيْءِ وَمُخَالِفِهِ فِي الْحُكْمِ؟ وَكُلُّ هَذَا مِنْ الْمِيزَانِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ مَعَ كِتَابِهِ وَجَعَلَهُ قَرِينَهُ وَوَزِيرَهُ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾(٥)، ويعبر ابن القيم بذلك عن منهجيته الواضحة في بيان الدور الكبير الذي أولاه الله تعالى للعقل ومخاطبته ليكون مستدلاً ومستنبطا وعاملا بمقتضى الاقيسة العقلية التي اودعها الله تعالى في فطرة الانسان السوي (٦)، ويستدل ابن القيم في قياس رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول:(وَقَدْ قَالَ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لِلرَّجُلِ الَّذِي سَأَلَهُ فَقَالَ: إنَّ أَبِي أَدْرَكَهُ الْإِسْلَامُ وَهُوَ شَيْخٌ كَبِيرٌ لَا يَسْتَطِيعُ رُكُوبَ الرَّحْلِ وَالْحَجُّ مَكْتُوبٌ عَلَيْهِ، أَفَأَحُجُّ عَنْهُ؟ قَالَ: أَنْتَ أَكْبَرُ وَلَدِهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ عَلَى أَبِيكَ دَيْنٌ فَقَضَيْتَهُ عَنْهُ أَكَانَ يُجْزِئُ عَنْهُ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَحُجَّ عَنْهُ» (٧)، فَقَرَّبَ الْحُكْمَ مِنْ الْحُكْمِ، وَجَعَلَ دَيْنَ اللَّهِ – سُبْحَانَهُ – فِي وُجُوبِ الْقَضَاءِ أَوْ فِي قَبُولِهِ

(١) سورة القلم، الآية ٣٥.
(٢) سورة القلم، الآية ٣٦.
(٣) سورة الجاثية، الآية ٢١.
(٤) سورة ص، الآية ٢٨.
(٥) سورة الشورى، الآية ١٧.
(٦) للاستزادة عن هذا الموضوع ينظر كتاب أعلام الموقعين عن رب العالمين من ص١٠١-١٤٦.
(٧) مسند الإمام أحمد ، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ) مؤسسة الرسالةط١، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م، ج٢٦، ص٤٧ رقم الحديث، ١٦١٢٥.اسناده صحيح

بِمَنْزِلَةِ دَيْنِ الْآدَمِيِّ، وَأَلْحَقَ النَّظِيرَ بِالنَّظِيرِ، وَأَكَّدَ هَذَا الْمَعْنَى بِضَرْبٍ مِنْ الْأُولَى(١)، وَهُوَ قَوْلُهُ: «اقْضُوا اللَّهَ فَاَللَّهُ أَحَقُّ بِالْقَضَاءِ) (٢)، مِنْهُ ايضاً(أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ: «وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ يَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ يَكُونُ عَلَيْهِ وِزْرٌ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ يَكُونُ لَهُ أَجْرٌ» (٣)، وَهَذَا مِنْ قِيَاسُ الْعَكْسِ الْجَلِيِّ الْبَيِّنِ، وَهُوَ إِثْبَاتُ نَقِيضِ حُكْمِ الْأَصْلِ فِي الْفَرْعِ الْفَرْعِ لِثُبُوتِ ضِدِّ عِلَّتِهِ فِيهِ(٤) ويستمر ابن القيم في براهينه العقلية المستندة الى الكتاب والسنة وبعيدا عن مصطلحات الفلسفة اليونانية بل ومنفرا منها مع ان من التزم براهينها العقلية البعيدة عن الالحاد والكفر، قد طوعها وهذبها لخدمة عقيدة التوحيد ،ذاتها التي ذاد عنها ابن القيم من اول مؤلفاته الى اخرها، وينتقد ابن القيم ونراه محقا من التزم فلسفة اليونان الكفرية البعيدة عن عقيدة التوحيد وجعلها المقياس الذي يقاس به العلم فيقول عنهم (فكل فيلسوف لا يكون عند هؤلاء كذلك فليس بفيلسوف في الحقيقة، إذا رأوه مؤمنا بالله وملائكته، وكتبه ورسله، ولقائه، متقيدا بشريعة الإسلام، نسبوه إلى الجهل والغباوة. فإن كان ممن لا يشكون في فضيلته ومعرفته، نسبوه إلى التلبيس والتنميس بناموس الدين استمالة لقلوب العوام. فالزندقة والإلحاد عند هؤلاء جزء من مسمى الفضيلة، أو شرط)(٥). وينتقد ابن سينا فيقول: انه قال(الوجود المطلق بشرط الإطلاق. وليس له عندهم صفة ثبوتية تقوم به، ولا يفعل شيئا باختياره البتة ولا يعلم شيئا من الموجودات أصلا، لا يعلم عدد الأفلاك، ولا شيئا من المغيبات. ولا له كلام يقوم به، ولا صفة ومعلوم أن هذا إنما هو خيال مقدر في الذهن، لا حقيقة له، وإنما غايته أن يفرضه الذهن ويقدره، كما يفرض الأشياء المقدرة، وليس هذا هو الرب الذى دعت إليه الرسل وعرفته الأمم، بل بين هذا الرب الذى دعت

(١) أعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم، ح١، ص١٥٢-١٥٣.

(٢) مسند الإمام أحمد ، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ) ج٢٦، ص٤٧ رقم الحديث، ١٦١٢٥.

(٣)المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري ، ، صحيح مسلم ج٢، ص٦٩٧، رقم الحديث ١٠٠٦.

(٤) أعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم، ج١، ص١٥٣.

(٥) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية، ج٢، ص٢٦٠.

إليه الملاحدة وجردته عن الماهية، وعن كل صفة ثبوتية، وكل فعل اختياري، وأنه لا داخل العالم، ولا خارجه، ولا متصل به، ولا مباين له ولا فوقه ولا تحته، ولا أمامه ولا خلفه، ولا عن يمينه ولا عن شماله – وبين رب العالمين، وإله المرسلين، ومن الفرق ما بين الوجود والعدم، والنفي والإثبات) (١). ونرجع الى تفسير ابن القيم لنلاحظ كم يستخدم القياس العقلي القرآني ونأخذ مثالا على ذلك في تفسيره لقوله تعالى في سورة النحل الآيات خمس وسبعون وست وسبعون قال تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾(٢)، فنراه يفسرها كالتالي: يقول(هذان مثلان متضمنان قياسين من قياس العكس. وهو نفي الحكم لنفي علته وموجبه. فإن القياس نوعان: قياس طرد، يقتضى إثبات الحكم في الفرع لثبوت علة الأصل فيه. وقياس عكس، يقتضى نفي الحكم عن الفرع لنفي علة الحكم فيه).

فالمثل الأول: ما ضربه الله سبحانه لنفسه وللأوثان. فالله سبحانه هو المالك لكل شيء، ينفق كيف يشاء على عبيده، سرا وجهرا، وليلا ونهارا، يمينه ملآى لا يغيظها نفقة، سحّاء الليل والنهار. والأوثان مملوكة لعابديها عاجزة لا تقدر على شيء، فكيف يجعلونها شركاء لله، ويعبدونها من دونه، مع هذا التفاوت العظيم، والفرق المبين) (٣) وأما المثل الثاني:(فهو مثل ضربه الله سبحانه وتعالى لنفسه ولما يعبد من دونه أيضا. فالصنم الذي يعبد من دونه بمنزلة رجل أبكم، لا يعقل ولا ينطق، بل هو أبكم القلب واللسان. قد عدم النطق القلبي واللساني، ومع هذا فهو عاجز لا يقدر على شيء البتة. ومع هذا فأينما أرسلته لا يأتيك بخير، ولا يقضي لك حاجة. والله سبحانه حي قادر متكلم، يأمر بالعدل، وهو على صراط مستقيم. وهذا وصف له بغاية الكمال والحمد. فإن أمره بالعدل– وهو الحق– يتضمن أنه سبحانه عالم به، معلّم له، راض به، آمر لعباده به، محب

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، لابن القيم، ج٢، ص٢٦١.

(٢) سورة النحل ،الآيتان ٧٥–٧٦.

(٣) تفسير القرآن الكريم (ابن القيم) لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ) تحق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان ،دار ومكتبة الهلال – بيروت ط١ – ١٤١٠ هـ، ج١، ص ٣٥٣.

لأهله. لا يأمر بسواه، بل ينزه عن ضده، الذي هو الجور والظلم والسفه والباطل. بل أمره وشرعه عدل كله. وأهل العدل هم أولياؤه وأحباؤه، وهم المجاورون له عن يمينه على منابر من نور، وأمره بالعدل يتناول الأمر الشرعي الديني، والأمر القدري الكوني. وكلاهما عدل، لا جور فيه) (١) اذن فمنهج الاستدلال العقلي عند ابن القيم قراني ونبوي تدعو اليه الفطرة الانسانية وتعمل بمقتضاه.

ثامناً: نداء الفطرة الصحيحة

يوكد ابن القيم في منهجه العقائدي ان الفطرة الانسانية السليمة تقود الانسان الى الاعتقاد الصحيح الموافق لعقيدة التوحيد التي جاء بها الانبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، يقول ابن القيم: أَنَّ الْفِطْرَةَ الْأُولَى هِيَ فِطْرَةُ الْإِسْلَامِ، وَأَنَّ الْفِطْرَةَ هِيَ مَا فُطِرَ عَلَيْهِ مِنَ الشَّقَاوَةِ، وَالسَّعَادَةِ، فَكُلُّ مَوْلُودٍ مِنْ أَطْفَالِ الْمُشْرِكِينَ والمسلمين عَلَى الْفِطْرَةِ، يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ الَّتِي خَلَقَهُ اللَّهُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّقَاوَةِ، وَالسَّعَادَةِ الَّتِي سَبَقَتْ فِي الْكِتَابِ(٢) ، والمعنى (فِطْرَةُ اللَّهِ دِينُ الْإِسْلَامِ) (٣).(الْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ الَّتِي لَوْ تُرِكَتْ عَلَى صِحَّتِهَا لَاخْتَارَتِ الْمَعْرِفَةَ عَلَى الْإِنْكَارِ، وَالْإِيمَانَ عَلَى الْكُفْرِ) (٤)، قَال تعالى في الحديث القدسي : («إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا») (٥)وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: " «مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ» "(٦)، (فَأَخْبَرَ أَنَّ أَصْلَ وِلَادَتِهِمْ وَنَشْأَتِهِمْ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَأَنَّ التَّهْوِيدَ وَالتَّنْصِيرَ وَالتَّمْجِيسَ طَارِئٌ طَرَأَ عَلَى الْفِطْرَةِ وَعَارِضٌ عَرَضَ لَهَا) "(٧).

---

(١) تفسير القرآن الكريم ، ابن قيم الجوزية، ج١، ص٣٥٤-٣٥٥.

(٢) ينظر: أحكام أهل الذمة محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، رمادى للنشر – الدمام، ط١، ١٤١٨ – ١٩٩٧، ج٢، ص٩٤٤.

(٣) أحكام أهل الذمة لابن القيم، ج٢، ص٩٥٧.

(٤) أحكام أهل الذمة لابن القيم، ج٢، ص١٠٦٣.

(٥) المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري ، صحيح مسلم، ج٤، ص ٢١٩٧، رقم الحديث ٢٨٦٥.

(٦) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، صحيح البخاري لمحمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، دار طوق النجاة ط١، ١٤٢٢هـ،ج٢،ص٩٤،رقم الحديث ١٣٥٨.

(٧) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، ج١، ص٢٥٧.

ومن اروع الامثلة استشهاد ابن القيم على نور الفطرة في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(١)،(المشكاة صدر المؤمن. والزجاجة: قلبه. شبه قلبه بالزجاجة لرقتها وصفائها وصلابتها. وكذلك قلب المؤمن فإنه قد جمع الأوصاف الثلاثة، فهو يرحم ويحسن، ويتحنن، ويشفق على الخلق برقته، وبصفائه تتجلى فيه صور الحقائق والعلوم على ما هي عليه. ويباعد الكدر والدرن والوسخ بحسب ما فيه من الصفاء وبصلابته يشتد في أمر الله ويتصلب في ذات الله تعالى، ويغلظ على أعداء الله تعالى، ويقوم بالحق لله تعالى. وقد جعل الله تعالى القلوب كالآنية، كما قال بعض السلف «القلوب آنية الله في أرضه، فأحبها إلى الله أرقها وأصلبها وأصفاها» والمصباح هو نور الإيمان في قلبه، والشجرة المباركة: هي شجرة الوحي المتضمنة للهدى ودين الحق. وهي مادة المصباح التي يتّقد منها. والنور على النور نور الفطرة الصحيحة، والإدراك الصحيح ونور الوحي والكتاب، فينضاف أحد النورين إلى الآخر فيزداد العبد نورا على نور. ولهذا يكاد ينطق بالحق والحكمة قبل أن يسمع ما فيه من الأثر، ثم يبلغه الأثر بمثل ما وقع في قلبه ونطق به، فيتفق عنده شاهد العقل والشرع، والفطرة والوحي فيريه عقله وفطرته وذوقه الذي جاء به الرسول صلّى الله عليه وسلّم هو الحق لا يتعارض عنده العقل والنقل، بل يتصادقان ويتوافقان فهذا علامة النور على النور، عكس من تلاطمت في قلبه أمواج الشبه الباطلة، والخيالات الفاسدة، من الظنون، والجهليات التي يسميها أهلها القواطع العقليات) (٢).

---

(١) سورة النور، الآية ٣٥.

(٢) تفسير القرآن الكريم ، ابن قيم الجوزية ،ج١،ص٣٩٦-٣٩٧، وينظر اجتماع الجيوش الإسلامية لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية ، ج٢، ص٥٢.

الخاتمة

قدم لنا ابن القيم منهجا واضحا في مجال الاستدلال العقائدي من حيث الترتيب والاولوية، ومن ناحية التوافق والانسجام بين هذه الأدلة فلا تعارض بينها، ومن حيث شموليتها لكل مسائل الاعتقاد، وردودها على المخالفين ووضوحها للمخاطبين، ورد المتشابه الى المحكم، والايمان بهما جميعا، والاستدلال العقلي وحجيته ،و نداء الفطرة الصحيحة الى توحيد الله تعالى، كل ذلك في اطار رصين وبليغ يقنع العقل والقلب بصحة ادلته ومرجعتيها العليا للقران الكريم والهدي النبوي الصحيح، وخطابها الواضح للمكلفين على قدر عقولهم افهامهم، ولهذا نالت ادلته العقائدية مكانة مهمة في كتبه ليس لسلاسة اسلوبها العاطفي ومرجعيتها النصية فقط بل لرصانتها العلمية والعقلية ايضا.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. الإتقان في علوم القرآن عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي(المتوفى: ٩١١هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤.
٢. اجتماع الجيوش الإسلامية محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، مطابع الفرزدق التجارية – الرياض، ط١، ١٤٠٨هـ / ١م.
٣. أحكام القرآن لعلي بن محمد بن علي، أبو الحسن الطبري، الملقب بعماد الدين، المعروف بالكيا الهراسي الشافعي (المتوفى: ٥٠٤هـ)، ج٢، ص٢٧٧، و الإتقان في علوم القرآن عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤.
٤. أحكام أهل الذمة محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، رمادى للنشر – الدمام،ط١، ١٤١٨ – ١٩٩٧.
٥. اعلام الموقعين عن رب العالمين شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤١١هـ – ١٩٩١م.
٦. الاعلام لخير الدين الزركلي الدمشقي، ت ١٢٩٦هـ، دار العلم للملايين ، ط١٥، (٢٠٠٢م).
٧. إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية.
٨. البحر المحيط في اصول الفقه ابو عبدالله بدر الدين الزركشي، ت٧٩٤ هـ، دار الكتبي ، ط١، ١٤١٤ هـ.
٩. تاج العروس من جواهر القاموس ، لمرتضى الزبيدي ، ت ١٢٠٥هـ، د.ت، دار الهداية.
١٠. تاريخ المذاهب الاسلامية محمد ابو زهرة ، دار الفكر العربي.
١١. التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين ، أبو المظفر طاهر بن محمد الأسفراييني، (المتوفى: ٤٧١هـ) تحقيق كمال يوسف الحوت، عالم الكتب– لبنان ط١، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م .

١٢. التبيان في أقسام القرآن، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ) دار المعرفة، بيروت، لبنان.
١٣. تفسير القرآن الكريم (ابن القيم) لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، تحق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان، دار ومكتبة الهلال – بيروت، ط١، ١٤١٠ هـ.
١٤. التقرير التحبير بن امير حاج ابن الموقت الحنفي ، ت٨٧٩هـ،دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٠٢هـ.
١٥. التعريفات لعلي بن محمد الشريفي الجرجاني، دار الكتب العلمية، ط١، سنة (١٤٠٣هـ-١٩٨٣).
١٦. توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم، أحمد بن إبراهيم بن حمد بن محمد بن حمد بن عبد الله بن عيسى (المتوفى: ١٣٢٧هـ)، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي – بيروت، ط٣، ١٤٠٦هـ.
١٧. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري لمحمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ،
١٨. ديوان الاسلام لشمس الدين الغزي ، ت ١١٦٧هـ، دار الكتب العلمية – بيروت لبنان، ط١، ١٤١١ هـ.
١٩. الرد الوافر لابن ناصر الدين شمس الدين القيسي ، ت ٨٤٢هـ ، المكتب الاسلامي- بيروت ، ط١، ١٢٩٢ هـ.
٢٠. سنن الترمذي محمد بن عيسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ)،شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، ط٢، ١٩٧٥.
٢١. شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل لشمس الدين ابن قيم الجوزية ، دار المعرفة، بيروت، لبنان الطبعة: ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.
٢٢. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية لأبي نصر الفارابي ت ٣٩٢ هـ دار العلم للملايين ط٤ ، ١٤٠٧هـ .

٢٣. الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ) دار العاصمة، الرياض، السعودية، ط١، ١٤٠٨هـ.
٢٤. العين للخليل بن احمد الفراهيدي ت ١٧٠ هـ ،دار ومكتبة الهلال ج٣،ص٣٩٢،والصحاح تاج اللغة وصحاح العربية لأبي نصر الفارابي ت ٣٩٢ هـ ،دار العلم للملايين ط٤ ،١٤٠٧ هـ.
٢٥. غريب الحديث لأبي اسحاق الحربي، ت ٢٨٥ هـ، الناشر جامعة ام القرى – مكة المكرمة، ط١، ١٤٠٥هـ.
٢٦. مباحث في علوم القران لصبحي الصالح دار العلم للملايين: ط٢٤، ٢٠٠٠م.
٢٧. المجتبى من السنن = السنن الصغرى للنسائي أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ)، مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب.
٢٨. المحصول في اصول الفقه فخر الدين محمد بن عمر الرازي، ط١، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤٠٨هـ).
٢٩. مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)اختصره: محمد بن محمد بن عبد الكريم بن رضوان البعلي شمس الدين، ابن الموصلي (المتوفى: ٧٧٤هـ): دار الحديث، القاهرة – مصر، ط١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
٣٠. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، دار الكتاب العربي – بيروت، ط٣، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م .
٣١. مسند الإمام أحمد ، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ) مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.
٣٢. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
٣٣. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أبو العباس الفيومي ت ٧٧٠هـ، المكتبة العلمية – بيروت، مطابع الفرزدق التجارية – الرياض ، ط١، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

٣٤. معالم أصول الدين لفخر الدين الرازي ت ٦٠٦هـ، دار الكتاب العربي – لبنان.
٣٥. المعجم الوسيط مجمع اللغة العربية ، إبراهيم مصطفى واخرون، دار الدعوة.
٣٦. معيار العلم في فن المنطق، لأبي حامد الغزالي، ت٥٠٥هـ، دار المعارف– مصر، ١٩٦١هـ.
٣٧. مفتاح السعادة لطاش كبري زادة (ت٩٦٨هـ)، دار الكتب العلمية ،، القاهرة ، ط سنة ١٩٦٨م.
٣٨. مفردات ألفاظ القرآن، الحسين بن محمد بن الفضل الاصفهاني، دار القلم، دمشق– د.س.
٣٩. مقاييس اللغة لأحمد بن فارس القزويني ت٣٩٥هـ ، دار الفكر، ١٣٩٩ هـ.
٤٠. مناهج البحث العلمي، عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٧٧، ط٣.
٤١. هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ) دار القلم– دار الشامية، جدة – السعودية، ط١، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م.
٤٢. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي (المتوفى: ٦٨١هـ)، دار صادر – بيروت.